المذهب الاسماعيلي من الدعوة إلى الدولة

تعتبر الشيعة من أخطر الفرق الهدامة في التاريخ الإسلامي، فتاريخها الحافل بالتجاوزات والأباطيل على مر العصور الإسلامية، بقي أنموذجا حيا ينبئ عن مدى خطورة أفكارهم وعقائدهم الضالة، والحقد الدفين لمذهب أهل السنة.

ورغم أن هذه الفرقة لم تحقق أهدافها المتوخاة في المشرق، فإنها وجدت في بلاد المغرب أرضا صالحة للبذر وجني الثمر. وقد قدر لها أن تعرف نجاحا كبيرا تمثل في إقامة الدولة العبيدية الإسماعيلية الباطنية التي سميت زورا وبهتانا بالدولة الفاطمية.

وقبل مناقشة هذه المسائل وتحليلها، يجدر بنا التطرق إلى مفهوم الشيعة في اللغة والاصطلاح، وبيان فِرَقِها.

الشيعة في اللغة:

من حيث مدلولها اللغوي لا تطلق إلا على أتباع الرجل وأنصاره[1]. وقد ورد هذا المعنى في بعض آيات القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿**فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ**﴾[2]. وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ**﴾[3]. فلفظ الشيعة في الآية الأولى تعني القوم، وفي الثانية: تشير إلى الأتباع الذين يوافقون على الرأي والنهج ويشاركون فيهما.

وفيها قال الزبيدي: أن أصلها من المشايعة؛ وهي المطاوعة والمتابعة[4]. ويقال: تشيَّع الرَّجلُ؛ أي انتحل مذهب الشِّيعة[5].

ويقول ابن دريد: "فلان من شيعة فلان أي: ممن يرى رأيه، والجمع أشياع"[6]. "وشايعت الرجل على الأمر تشييعاً إذا أعنته عليه[7]. "وشايعت الرجل على الأمر مشايعة وشياعاً إذا مالأته عليه"[8].

وقال الأزهري: "والشيعة أنصار الرجل وأتباعه وكل قوم اجتمعوا على أمرهم شيعة. والجماعة شيع وأشياع...والشيعة: قوم يهوون هوى عترة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ويوالونهم...شيّعت النار تشييعاً إذا لقيت عليها ما تذكيها به، ويقال: شيعت فلاناً أي: خرجت معه لأودعه، ويقال: شيعنا شهر رمضان بست من شوال أي: أتبعناه

1- إحسان إلهي ظهير، الشيعة والتشيع فرق وتاريخ، الرياض: دار السلام، ط10، 1995، ص: 13.

2- القصص، الآية: 15.

3- الصافات، الآية: 83.

4- المرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج21، تحقيق: عبد العليم العطاوي، الكويت: مطبعة حكومة الكويت، 1984، ص: 303.

5- أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج2، القاهرة: عالم الكتب، ط1، 2008، ص: 1256.

6- الحسن ابن دريد، كتاب جمهرة اللغة، حققه وقدم له: رمزي منير بعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، ط1، 1987، ص: 872.

7- المصدر نفسه.

8- نفسه.

بها...وتقول العرب: آتيك غداً، أو شَيَعَهُ أي: اليوم الذي يتبعه، والشيعة التي يتبع بعضهم بعضاً، والشيع الفرق الذي يتبع بعضهم بعضاً وليس كلهم متفقين"[1].

الشيعة في الاصطلاح: قال أبو الحسن الأشعري في صدد ذكره للشيعة: "وإنما قيل لهم الشيعة: لأنهم شايعوا عليًا رضي الله عنه ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم"[2].

وقال ابن خلدون: "اعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع، ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعًا متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصومًا من الكبائر والصغائر، وإن عليًا رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة"[3].

ويعرّف القمي[4] الشيعة ويوافقه النوبختي[5]؛ في ذلك بقوله: "هم شيعة علي بن أبي طالب"[6]. وقد ذكر أبو زهرة من المحْدَثين، أنهم أقدم المذاهب السياسية الإسلامية، وقد ظهروا بمذهبهم آخر عصر عثمان رضي الله عنه، ونما وترعرع في عهد علي رضي الله عنه[7].

فرق الشيعة: حفلت كتب المقالات والفرق بذكر فرق الشيعة وطوائفهم. وقد ذكر المسعودي وهو شيعي أن فرق الشيعة بلغت ثلاثا وسبعين فرقة[8].

وإذا رجعنا إلى كتب الفرق وغيرها، فإننا نجدها تختلف في الأصول التي انبثقت منها أقسام فرق الشيعة الكثيرة. فهذا أبو الحسن الأشعري في مقالات الإسلاميين[9]، يجعلها ثلاثة فرق، وكل فرقة تنقسم إلى مجموعة فرق؛ وهي: الغالية، والرافضة (الإمامية)، والزيدية.

وقد سار على نهج الأشعري في تقسيم الشيعة إلى فرق ثلاث، مع الاختلاف في تسمية كل فرقة، جمهرة من المؤرخين ومنهم الرازي في **اعتقاداته**، والإسفراييني في **تبصيره**، وغيرهم[1]. بينما ذهبت جمهرة أخرى إلى إعطاء تقسيمات

1- أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، ج3، تحقيق: عبد الحليم النجار ومحمد علي النجار، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص ص 61-62.

2- أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ج1، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: المكتبة العصرية، 1990، ص: 65.

3- ابن خلدون، العبر، ج1، ص: 246.

4- **القمي**: سعد بن عبد الله القمي، هو عند الشيعة جليل القدر، واسع الأخبار، كثير التصنيف، ثقة. من كتبه: الضياء في الإمامة، ومقالات الإمامية، توفي سنة 301هـ وقيل: 299هـ. ينظر: الزركلي، الأعلام، ج3، ص: 86.

5- **الحسن بن موسى النوبختي**: أبو محمد، متكلم، فيلسوف، قال الطوسي: كان إمامياً حسن الاعتقاد، له مصنفات كثيرة منها: كتاب الآراء والديانات؛ توفي بعد الثلاثمائة. الذهبي، سير، ج15، ص: 327. كحالة، معجم، ج3، ص: 298.

6- الحسن بن موسى النوبختي وسعد بن عبد الله القمي، كتاب فرق الشيعة، حقق وصحح نصوصه: عبد المنعم الحفني، القاهرة: دار الرشاد، ط1، 1992، ص: 15.

7- أبو زهرة محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد، القاهرة: دار الفكر العربي، ص: 30.

8- ناصر بن عبد الله بن علي القفاري، أصول مذهب الشعية الإمامية الإثني عشرية عرض ونقد، ط2، 1994، ص: 90.

9- الأشعري، مقالات الإسلاميين ، ج1، ص ص: 65-105.

أخرى لفرق الشيعة، ومنهم عبد القاهر البغدادي، والشهرشتاني وغيرهم[2]. وقد تعددت فرق الشيعة[3]، وهي إن اختلفت في المظهر إلا أنها اتفقت جميعا في حصر الخلافة في آل علي؛ وأهمها:

الإمامية[4]: وهي المجموعة الشيعية الكبرى التي ظلت على ولائها منذ عهد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى عهد حفيده الخامس جعفر بن محمد الصادق. وعدد فروعها ثمانية عشر فرعا، وأهمها: الإثنا عشرية، الخطابية، النصيرية.

الزيدية[5]: وهي أقرب فرق الشيعة إلى الجماعات الإسلامية، وأكثرها اعتدالا. قالت بإمامة الحسن بن علي ثم ابنه الحسن المثنى وأخيرا زيد بن علي زين العابدين، وهو صاحب هذا المذهب. ومن أشهر أئمتهم محمد النفس الزكية. وقد تفرعت عنها أربع فرق وهي: السليمانية، البترية، اليعقوبية، والجارودية.

الإسماعيلية[6]: أو الرافضة[7]؛ قالت بإمامة إسماعيل بن محمد بن جعفر الصادق وإمامة أولاده من بعده. وأهم فروعها: القرامطة، الدروز، المستعلية، النزارية، الداودية، الميمونية.

تطور الدعوة الإسماعيلية إلى تقلد المهدي الإمامة:

1/- ميمون القداح: يعتبر أبو الخطاب محمد بن أبي زينب مقلاص الأجدع الأسدي[8]، أو محمد بن أبي ثور[9]، المكنى بأبي ظبيان وبأبي إسماعيل، المنظر الحقيقي للإسماعيلية، وتكوينها، وإيجاد عقائدها ومعتقداتها الضالة التي تبنتها فيما بعد حسب ما يراه الكثيرون ممن اعتنوا بالفرق من المتقدمين خاصة الشيعة منهم، ومن المتأخرين المستشرقون بصفة أخص[10]. وأشهر من كتب عنه وعن عقائده من الشيعة المتقدمين عبد الله القمي الشيعي المتوفي ما بين سنتي 299هـ و301هـ، ومعاصره النوبختي المتوفي ما بين سنتي 301هـ و310هـ.

1- القفاري، أصول مذهب الشعية الإمامية، ص ص: 93-94.

2- المرجع نفسه، ص: 94.

3- راجع: أبو زهرة، تاريخ المذاهب، ص ص: 35- 55. إحسان إلهي ظهير، الشيعة والتشيع، ص: 163-267. الحسن بن موسى النوبختي وسعد بن عبد الله القمي، كتاب فرق الشيعة.

4- أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، بيروت: دار النهضة العربية، ص: 221. الزيات، المعجم الوسيط، ص: 57.

5- أبو زهرة، تاريخ المذاهب، ص: 41. إحسان إلهي ظهير، الشيعة والتشيع، ص: 204. وص: 209.

6- العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص: 221.

7- هناك من يرى أنهم سموا بذلك لرفضهم زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، بعد أن اجتمعوا على بيعته؛ وسبب رفضهم له أنهم سألوه البراءة من أبي بكر وعمر فلم يبرأ منهما. ينظر: نشوان بن سعيد الحميرى اليمني، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، ج4، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري ومطهر بن علي الإرياني ويوسف محمد عبد الله، بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق: دار الفكر، ط1، 1999، ص: 2572.

8- النوبختي، فرق الشيعة، ص: 52.

9- على رأي المقريزي. ينظر: تقي الدين لمقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط1، 1997، ص: 26.

10- إحسان إلهي ظهير، الإسماعيلية تاريخ وعقائد، باكستان: إدارة ترجمان السنة، 1987، ص ص: 46-47.

ويعتبر ميمون القداح الديصاني وابنه عبد الله من دعاة الإسماعيلية، وأكابر علمائها، استنادا على ما ذكره المقريزي في **خططه**[1]، وقد أشار ابن الأثير في **الكامل** كذلك إلى هذه العلاقة بين أبا الخطاب وميمون القداح[2].

وعليه؛ "فإن المذهب الإسماعيلي هو ما أوجده ذرية أبي الخطاب، بتفديتهم أنفسهم على أبناء جعفر الصادق، وإسماعيل لكي يبقى مذهبهم ويدوم"[3]، ولذلك فعلى رأي القمي والنوبختي فإن الخطابية هم الإسماعيلية الخالصة، وميمون القداح وابنه عبد الله هما أحد أهم منظريها على الإطلاق[4].

وعبد الله بن ميمون القداح ذكر الذهبي في **سير أعلام النبلاء** أقوالا عديدة في ذمّه وزندقته وتضعيف حديثه[5]. وقد تحدث الذهبي عن ضعفه في الحديث في معرض ترجمته له قائلا: "**عَبْدُ اللهِ بنُ مَيْمُوْنِ القَدَّاحُ المَكِّيُّ**: مَوْلَى بَنِي مَخْزُوْمٍ. فَيَرْوِي عَنْ: يَحْيَى بنِ سَعِيْدٍ الأَنْصَارِيِّ، وَعُبَيْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ، وَجَعْفَرِ بنِ مُحَمَّدٍ. وَعَنْهُ: إِبْرَاهِيْمُ بنُ المُنْذِرِ، وَمُؤَمَّلُ بنُ إِهَابٍ، وَأَحْمَدُ بنُ الأَزْهَرِ، وَعِدَّةٌ. **ضَعَّفُوهُ**"[6]. والشاهد هنا قوله: **ضعفوه**.

وقد ترجم له ابن حجر في **تهذيب التهذيب، وذكر في ذمّه أقوالا كثيرة**. يقول ابن حجر: "عبد الله بن ميمون بن داود القداح المخزومي، مولاهم المكي. روى عن جعفر بن محمد، وإسماعيل بن أمية، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وعثمان بن الأسود وغيرهم. وعنه أبو الخطاب زياد بن يحيى، ومؤمل بن إهاب، ويعقوب بن حميد بن كاسب، وأبو الأزهر، وأحمد بن شيبان وغيرهم. قال البخاري: **ذاهب الحديث**. وقال أبو زرعة: **واهي الحديث**. وقال الترمذي: **منكر الحديث** وقال ابن عدي: **عامة ما يرويه لا يتابع عليه**؛ له عنده حديث جابر في الإيمان بالقدر، وله في الشمائل: التختّم في اليمن. قلت: وقال النسائي: **ضعيف**. وقال أبو حاتم: **منكر الحديث**. وقال أبو حاتم: يروي عن الاثبات الملزقات؛ لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد. وقال الحاكم: روى عن عبيد الله بن عمر أحاديث موضوعة. وقال أبو نعيم الأصبهاني: **روى المناكير**"[7].

وميمون بن ديصان الخرّمي من سبي الأهواز، مجوسي، ومن موالي جعفر الصادق. ويلقب بميمون القداح، "وسمي قداحاً، لأنه كان كحّالاً يقدح العين إذا نزل فيها الماء"[8].

2/– نسب عبيد الله المهدي[9] **في ميزان التاريخ**: إن عبيد الله؛ ذو أصول مجوسية يهودية. وقد أكد ذلك ثلة من المؤرخين أمثال المقريزي في **اتعاظ الحنفا والخطط** إذ يقول: "الملقب بالمهدي، هو سعيد بن الحسين بن أحمد، بن عبد الله بن

1- المقريزي، الخطط، ج2، ص: 26.

2- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص: 577.

3- إحسان إلهي ظهير، الإسماعيلية تاريخ وعقائد، ص: 55.

4- إحسان إلهي ظهير، الإسماعيلية تاريخ وعقائد، ص: 55.

5- ينظر على سبيل المثال: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج06، ص: 268.

6- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج9، تحقيق: كامل الخراط، ص: 320.

7- ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج6، ص: 49.

8- ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص: 118.

9- راجع ترجمته عند: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص: 118.

ميمون القداح، بن ديصان الثنوي الأهوازي وأصلهم من المجوس"[1]. وقد عضده فيما ذهب إليه صاحب **كتاب الفهرست**[2]، والنويري في **نهاية الإرب**[3]، والبغدادي في **الفرق بين الفرق**[4]، والإسفراييني في **التبصير بالدين**[5].

ويذهب بعض مؤرخي السنة أمثال ابن خلدون في **العبر** حيث يقول متحدثا عن نسب المهدي: "عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر المصدّق بن محمد المكتوم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق، ولا يلتفت لإنكار هذا النسب"[6]. وقد وافقه في ذلك القلقشندي في **نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب**[7]، وبذلك قال ابن حزم الظاهري المعاصر للأئمة الإسماعيليين في طور ظهورهم، وأثبت نسبتهم للبيت النبوي وأنهم أبناء فاطمة[8].

بيد أن ما ذهب إليه بعض مؤرخي السنة غير مؤسس على أدلة صحيحة. ففي أيام الحاكم بأمر الله-الإمام الإسماعيلي السادس- سنة 402هـ، صدر محضر من بغداد بتوقيعات كثير من الفقهاء والمتكلمين والقضاة والمحدثين بمن فيهم فقهاء الشيعة والعلويين، ينكر جليا دعوى الإسماعيلية بأن عبيد الله المهدي وأولاده من العلويين الفاطميين. وقد ذكر هذا المحضر عدد كبير من المؤرخين ولأهميته ننقله كاملا عن ابن الجوزي؛ إذ يقول:

"وفي هذا الشهر كُتب في ديوان الخلافة محاضر في معنى الذين بمصر والقدح في أنسابهم ومذاهبهم، وكانت نسخة ما قرئ منها ببغداد وأخذت فيه خطوط الأشراف والقضاة والفقهاء والصالحين والمعدلين والثقات والأماثل بما عندهم من العلم والمعرفة بنسب الديصانية، وهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي أحزاب الكافرين ونطف الشياطين شهادة متقرب إلى الله جلت عظمته، وممتعض للدين والإسلام ومعتقد إظهار ما أوجب الله تعالى على العلماء أن يبينوه للناس ولا يكتمونه [شهدوا جميعا أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم حكم الله عليه بالبوار والدمار والخزي والنكال والاستيصال ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد لا أسعده الله، فإنه لما صار إلى الغرب تسمى بعبد الله وتلقب بالمهدي ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس، عليه وعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين، أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد على بن أبي طالب ولا يتعلقون منه بسبب، وأنه منزه عن باطلهم، وأن الذي ادعوه من الانتساب إليه باطل وزور وأنهم لا يعلمون أن أحدا من أهل بيوتات الطالبيين توقف عن إطلاق القول في هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء، وقد كان هذا الإنكار لباطلهم ودعواهم شائعا بالحرمين، وفي أول أمرهم بالغرب منتشرا انتشارا يمنع من أن يتدلس على أحد كذبهم أو يذهب وهم إلى تصديقهم، وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار فساق فجار ملحدون زنادقة معطلون، وللإسلام جاحدون، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، قد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وأحلوا الخمور، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف

1- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1، ص: 28. الخطط، ج2، ص: 26.

2- الوراق أبو الفرج محمد بي أبي يعقوب، كتاب الفهرست للنديم، تحقيق: رضا تجدد، ص ص: 238-240.

3- النويري، نهاية الأرب، ج28-29، تحقيق: نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، ص: 38.

4- البغدادي، الفرق بين الفرق، ص: 283.

5- الإسفراييني في التبصير بالدين، ص: 141.

6- ابن خلدون، العبر، ج3، ص: 449.

7- أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري، بيروت: دار الكتاب اللبنانين، ط2، 1980، ص: 145.

8- ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة: دار المعارف، ط5، 1982، ص ص: 59-60.

وادعوا الربوبية، وكتب في ربيع الآخر من سنة اثنتين وأربعمائة. وقد كتب خطه في المحضر خلق كثير من العلويين: المرتضى، والرضى وابن الأزرق الموسوي، وأبو طاهر بن أبي الطيب، ومحمد بن محمد بن عمر، وابن أبي يعلى، ومن القضاة: أبو محمد ابن الأكفاني، وأبو القاسم الخرزي، وأبو العباس السوري، ومن الفقهاء: أبو حامد الإسفرائيني، وأبو محمد الكشفلي، وأبو الحسين القدوري، وأبو عبد الله الصيمري، وأبو عبد الله البيضاوي، وأبو على بن حمكان، ومن الشهداء: أبو القاسم التنوخي. وقرئ بالبصرة وكتب فيه خلق كثير"[1].

وقد علق ابن كثير على ذلك قائلا: "وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أن هؤلاء أدعياء كذبة، كَمَا ذَكَرَ هَؤُلَاءِ السَّادَةُ الْعُلَمَاءُ وَالْأَئِمَّةُ الْفُضَلَاءُ، وأنهم لا نسب لهم إلى على بن أبى طالب، ولا إلى فاطمة كما يزعمون، قول ابن عمر للحسين بن على حين أراد الذهاب إلى العراق، وذلك حين كتب عوام أهل الكوفة بالبيعة إليه فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: لَا تَذْهَبْ إِلَيْهِمْ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تُقْتَلَ، وَإِنَّ جَدَّكَ قَدْ خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَاخْتَارَ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا، وَأَنْتَ بُضْعَةٌ مِنْهُ، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَا تَنَالُهَا لَا أَنْتَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ خلفك ولا مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ. فَهَذَا الْكَلَامُ الْحَسَنُ الصَّحِيحُ الْمُتَوَجِّهُ الْمَعْقُولُ، مِنْ هَذَا الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ، يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يَلِي الْخِلَافَةَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ إِلَّا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيَّ الّذي يكون في آخر الزمان عند نزول عيسى بن مريم، رغبة بهم عن الدنيا، وأن لا يدنسوا بها. وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ مَلَكُوا دِيَارَ مِصْرَ مُدَّةً طَوِيلَةً، فَدَلَّ ذَلِكَ دَلَالَةً قَوِيَّةً ظَاهِرَةً على أنهم ليسوا من أهل البيت، كما نص عليه سادة الفقهاء. وَقَدْ صَنَّفَ الْقَاضِي الْبَاقِلَّانِيُّ كِتَابًا فِي الرَّدِّ على هؤلاء وسماه «كشف الأسرار وهتك الأستار» بين فِيهِ فَضَائِحَهُمْ وَقَبَائِحَهُمْ، وَوَضَّحَ أَمْرَهُمْ لِكُلِّ أَحَدٍ، ووضوح أمرهم ينبئ عن مطاوى أفعالهم، وأقوالهم، وقد كان الباقلاني يقول في عبارته عنهم: هم قوم يظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض"[2].

انتقال الدعوة الإسماعيلية إلى بلاد المغرب[3]:

1/– الداعيان أبو سفيان والحلواني: يعود تاريخ حلول الدعاة الشيعة لبلاد المغرب إلى منتصف القرن الثاني الهجري (ق2هـ/8م). فقد ذكر القاضي النعمان في **افتتاح الدعوة**، أنه في سنة 145هـ/762م، قدم إلى المغرب رجلان من المشرق، بعثهما أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق، لنشر الدعوة الشيعية بها، وقال لهما: "بالمغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر"[4]. أحدهما يدعى عبد الله بن علي بن أحمد المعروف بالحلواني، والثاني أبو سفيان الحسن بن قاسم[5]. وقد أمرهما أن يتجاوزا إفريقية، ثم يفترقان، فينزل كل منهما ناحية، حفاظا على سرية ونجاح دعوتهما[1].

1- أبو الفرج ابن الجوزي، المنتظم في تواريخ الملوك والأمم، ج15، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه: نعيم زرزور، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1992، ص ص: 82-83.

2- ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ج13، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: صلاح محمد الخيمي، راجع: عبد القادر الأرناؤوط وبشار عواد معروف، دمشق: دار ابن كثير، ط2، 2010، ص: 10.

3- عن الموضوع بالتفصيل راجع: فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية ببلاد المغرب التاريخ السياسي والمؤسسات، نقله إلى العربية: حمادي الساحلي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1994، ص: 78. حسن حافظ علوي، "**الدعوة الشيعية ببلاد المغرب**"، ضمن كتاب المذاهب الإسلامية ببلاد المغرب، ص ص: 91-106.

4- ابن خلدون، العبر، ج4، ص: 41.

5- القاضي النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق: فرحات الدشراوي، تونس: الشركة التونسية للنشر والتوزيع، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 1986، ص ص: 26-27.

ولما وصلا إلى مرماجنة، نزل أبو سفيان في موضع يقال له تالا ونزل به[2]. بينما نزل الحلواني بموضع يقال له الناظور[3]. وقد كان الحلواني يقول: "بعثت أنا وأبو سفيان، فقيل لنا: اذهبا إلى المغبر، فإنكما تأتيان أرضا بورا، فاحرثاها وكرباها، وذللاها إلى أن يأتيها صاحب البذر، فيجدها مذللة، فيبذر حبه فيها"[4]. وقد مات أبو سفيان بمرماجنة، وظل قبره معروفا هناك إلى زمن القاضي النعمان، وبقي الحلواني بعده مدة ومات[5].

وهكذا سينزل صاحب البذر في "الأرض المحروثة"، التي تأثر أبناؤها من كتامة بالدعوة الشيعية التي بثها فيهم أبو سفيان والحلواني.

2/– الداعية أبو عبد الله الشيعي[6] ومشروع قيام الدولة العبيدية: هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا. وهو ليس من أصل صنعاني كما تشير الكثير من الروايات التي أضفت عليه اللقب في بداية دعوته؛ بل هو كوفي من أهل الكوفة[7]. وصفه القاضي النعمان بقوله: "وكان ذا علم وعقل ودين وورع وامانة ونزاهة، وكان أكثر علمه الباطن"[8].

وحسب الرواية التي أوردها القاضي النعمان؛ فإن أبا عبد الله الشيعي، رحل إلى اليمن مركز الدعوة ليتدرب على أصول الدعوة، عند شيخهم رستم ابن حوشب، وقد انتهى الأمر به بأن تم تعيينه داعيا لبلاد المغرب. ولم تمض سوى أقل من سنة على قدومه إلى اليمن، حتى انضم إلى قافلة الحجيج سنة 279هـ، وخرج معهم إلى مكة المكرمة ليبتدئ معهم المرحلة المغربية من حياته[9].

ولما وصل الشيعي إلى أرض الرسالة، سعى لربط الصلة مع حجاج البربر القادمين من بلاد كتامة. وقد اجتمع بهم في منى، وقد اجتمع عليه من كان حاجا ذلك العام من أهل كتامة، وحدثهم إلى درجة تأثرهم بطريقة حديثهم[10].

وبعد انتهاء موسم الحج، رافقهم إلى مصر، وادّعى بأنه يريد الإقامة بها لتعليم الناس، لكنهم وفد كتامة ألحوا عليه بأن يرافقهم إلى بلادهم، للقيام بهذه المهمة عندهم، فاستكان لرأيهم، وانتهى بهم المطاف إلى سوجمار من أرض سماتة. وهناك

1- القاضي النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، ص: 27.

2- المصدر نفسه.

3- نفسه، ص: 29.

4- القاضي النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، ص: 29.

5- المصدر نفسه، ص ص: 28-29. فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص: 79. حسن حافظ علوي، "**الدعوة الشيعية ببلاد المغرب**"، ص: 92.

6- راجع ترجمته في: الزركلي، الأعلام، ج2، ص: 230.

7- فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص: 80.

8- القاضي النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، ص: 30.

9- فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص ص: 81-82.

10- فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص: 84.

تلقته جموع ممن تشيعوا على عهد الحلواني، خاصة منهم حمدون الذي يلقبه النعمان بأبي عبد الله الأندلسي والورفجومي. وبعد استراحة يسيرة استأنفت القافلة رحلتها إلى بلاد كتامة، التي وصلوا إليها يوم الخميس 14 ربيع الأول سنة 280هـ[1].

وقد اختلفت الروايات وتضاربت حول تاريخ قدوم الشيعي إلى بلاد المغرب. فيرى صاحب **الروض المعطار** أن قدومه إليها كان سنة 280هـ، يستشف ذلك من قوله في حديثه عن عبيد الله المهدي إذ يقول: "وتوجيهه له إلى المغرب ليكون آخر دعاته إلى المهدي عبيد الله...وكان ذلك في خلافة المعتضد سنة ثمانين ومائتين"[2]. وقد أيده في ذلك ما ذهب إليه أبو الفدا في **مختصره**، حين قال: "فسار معهم إلى أرض كتامة من المغرب، فقدمها منتصف ربيع الأول، سنة ثمانين ومائتين"[3].

كما أكد ذلك الذهبي في **سيره** بقوله: "فَنَفَّذَ ابْنُ حَوْشَب إِلَيْهِم أَبَا عَبْدِ اللهِ وَمَعَهُ ذهبٌ كَثِيْرٌ فِي سَنَةِ ثَمَانِيْنَ وَمائَتَيْن"[4]. إلا أن الملاحظ، أن الذهبي قد وقع عنده اضطراب كبير في هذا التاريخ. فبرجوعنا إلى **تاريخ الإسلام والعبر في خبر من غبر**، نجده يورد تاريخ آخر وهو سنة 288هـ. يقول الذهبي في **تاريخ الإسلام**: "سنة ثمانٍ وثمانين ومائتين... فيها ظهر أبو عبد الله الشيعي بالمغرب، ونزل بكُتامة، ودعاهم إلى المهديّ عُبَيْد الله"[5]. ويقول في **العبر في خبر من غبر**: "سنة ثمان وثمانين ومئتين فيها ظهر أبو عبد الله الشيعي بالمغرب، فدعا العامة إلى الإمام المهدي عبيد الله، فاستجابوا له"[6].

بينما شذّ ابن خلدون في **عبره** عن هذه الأقوال كلها وجعله سنة 286هـ؛ حيث يقول: "فدعا أبو عبد الله الشيعي سنة ست وثمانين ومائتين بإفريقية في طامة لعبيد الله المهدي بن محمد بن جعفر بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وبايع له"[7]. إلا أنه وبعد البحث والتقصي، تبين أن التاريخ الحقيقي الذي أجمعت عليه الكثير من المصادر هو سنة 280هـ.

وقبل أن يغادر الشيعي شطر المغرب، خاطبه شيخه ابن حوشب قائلا: "إن أرض كتامة من البربر قد حرثها الحلواني وأبا موسى، وقد ماتا، وليس لها غيرك، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك"[8].

وهكذا فإن أبا عبد الله الشيعي لم يصل إلى موطن كتامة إلا وقد وجد دعاة الشيعة مهدوا له الطريق، وبثوا دعوة الشيعة في الكثير من مناطق بلاد المغرب والأندلس، بل وحتى بعض مناطق السودان أيضا[9].

1- فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص: 85.

2- عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان، ط2، 1984، ص: 306.

3- أبو الفداء عماد الدين إسماعيل المختصر في أخبار البشر، ج2، مصر: المطبعة الحسينية، ص: 65.

4- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج15، ص: 148.

5- الذهبي، تاريخ الإسلام، مج6، ص ص: 660-661.

6- شمس الدين الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج1، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت: دار الكتب العلمية، ص: 414.

7- ابن خلدون، العبر، ج3، ص: 351.

8- تقي الدين المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج1، حققه: جمال الدين الشيال، مصر: لجنة إحياء التراث الإسلامي، ط2، 1996، ص: 55. علي حسني الخربوطلي، أبو عبد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية، المطبعة الفنية الحديثة، 1972، ص: 25.

9- حسن حافظ علوي، "**الدعوة الشيعية ببلاد المغرب**"، ص: 94.

ومهما كان الأمر، فإن هذا الشيعي بقي مدة 17 عاما (من سنة 280هـ إلى سنة 297هـ) يؤدي مهمته في أحسن الظروف منذ أن وصل إلى إيكجان، يدعو في سر وكتمان، ويعمل بكل جد واجتهاد في سبيل نشر الدعوة الإسماعيلية بين قبائل كتامة، فكان له ما أراد. حيث وبعد أن قويت شوكته واشتد ساعده، دخل في مواجهات مباشرة مع الأغالبة.

وقد جهز زيادة الله بن الأغلب جيشا من أربعين ألفا مقاتل للقضاء على المد الشيعي بقيادة أبي عبد الله الشيعي؛ إلا أن الهزيمة لاحقت الأغالبة أينما حلوا وارتحلوا. ذلك أن أبا عبد الله الشيعي استطاع الاستيلاء على طبنة[1]، وسيطر على باغاية ومرماجنة وتيفاش وتبسة ومجانة[2]، ثو يمم شطر رقادة عاصمة الأغالبة سنة 296هـ في مائة ألف مقاتل، ودخلها[3] "في رجب سنة ست وتسعين، ونزل قصورها وفرّق دورها على كتامة ونادى بالأمان"[4].

وبعد دخول رقادة؛ استخلف الشيعي أخاه أبا العباس على رقادة وترك معه أبا زاكي تمام بن معارك من قوّاد كتامة[5]. واتجه إلى المغرب الأوسط، فدخل تاهرت عاصمة الرستميين في السنة نفسها، ووصل حتى دخل سجلماسة التي فرّ عنها أميرها اليسع بن مدرار، وأخذ بها البيعة لعبيد الله المهدي سنة 297هـ[6].

3/- عبيد الله المهدي وتأسيس الدولة العبيدية الفاطمية: وخلال سنة 297هـ، أرسل برسالة إلى عبيد الله المهدي في سلمية، يخبره ويبشره بهذه الانتصارات، ويدعوه للقدوم إلى المغرب[7]. وتورد لنا أحد المصادر الشيعية المتقدمة، بعضا من تفاصي خروج عبيد الله المهدي قاصدا المغرب إذ يقول: "ولما انتهت الإمامة إلى المهدي وقبض الإمام قبله...كان يقول له: إنك ستهاجر بعدي هجرة بعيدة، وتلقى محنة شديدة"[8].

لقد كانت تلك هي اللحظة التي طال انتظارها من العبيدي الدعي، فما كان منه إلا أن لبى الدعوة، فغادر سلمية بالشام، ومعه ابنه القائم الذي كان حدث السنّ، وشق طريقه إلى بلاد المغرب ووصل أخيرا إلى سجلماسة[9]، أين سجنه اليسع بن المدرار آخر أمراء بني المدرار، فاضطر الشيعي للانتقال إلى سجلماسة لتخليص المهدي العبيدي من سجنه[10]، حيث يصور لنا المقريزي المشهد بقوله: "وذلك أن أبا عبد الله الشيعي لما دخل شهر رمضان سنة ست وتسعين ومائتين سار

1- فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص: 132.

2- المرجع نفسه، ص: 143.

3- ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، تحقيق: بروفنصال وكولان، ص: 147. الخربوطلي، أبو عبد الله الشيعي، ص ص: 50- 52. فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص: 161.

4- ابن خلدون، العبر، ج3، ص: 354.

5- المصدر نفسه.

6- حسن حافظ علوي، "**الدعوة الشيعية ببلاد المغرب**"، ص: 96.

7- الخربوطلي، أبو عبد الله الشيعي، ص: 52.

8- القاضي النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، ص: 157.

9- عن رحلته إلى بلاد المغرب، راجع: حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف، عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، مصر: مكتبة النهضة المصرية، ص: 125. فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص: 168.

10- القاضي النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، ص ص: 269-270. الخربوطلي، أبو عبد الله الشيعي، ص ص: 52-55. فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص: 176.

من رقادة وقد استخلف أخاه أبا العباس على إفريقية في جيوش عظيمة، فاهتز المغرب لخروجه، وخافته زناتة، وزالت القبائل عن طريقه، وأتته رسلهم فدخلوا في طاعته"[1].

ولما أخرجه من السجن ولم يكن قد رآه من قبل، ترجل عن فرسه وترجل الجيش كله، ثم هوى الشيعي إلى الأرض يقبلها بكل حرارة، ورفع رأسه وقبّل رجْل العبيدي وأخذ يبكي. وقد صور لنا القاضي النعمان هذا الحدث في مشهد درامي محبوك بقوله: "ودخلوا معهم إلى المكان الذي كان فيه المهدي، فاستخرجوه واستخرجوا القائم؛ فكانت في الناس مسرّة عظيمة استفزّتهم وكادت تطيس بها عقولهم. وقُرِّب لهما فَرَسَان فركباهما، وحفّ المؤمنون بها، والدعاة يمشون حولهما، وأبو عبد الله يمسي بين يدي الإمام ويقول: هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون، ويحمد الله ويبكي من شدة الفرح"[2]. وبعدما تركت سجلماسة للنهب إثر هروب ابن مدرار، أقام المهدي بها أربعين يوما[3]، "ثم نهض بجميع عساكره يريد إفريقية"[4].

وقد أورد المقريزي تفاصيل هذه الحركة ونتائجها في قوله: "وأقام عبيد الله المهدي بسجلماسة أربعين يوما، ثم سار إلى إفريقية، وأحضر الأموال من إيكجان فجعلها أحمالا، وصار بها إلى رقادة في العشر الأخير من ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين. وزال مالك بني الأغلب من إفريقية، وملك بني مدرار من سجلماسة، وملك بني رستم من تاهرت. وملك المهدي جميع ذلك، فلما قرب من رقادة تلقاه أهلها وأهل القيروان وأبو عبد الله ورؤساء كتامة مشاة بين يديه، وابنه خلفه، فسلموا عليه، فرد عليهم رداً جميلا، وأمرهم بالانصراف، ونزل بقصر من قصور رقادة. وأمر يوم الجمعة أن يذكر اسمه في الخطبة، ويلقب بالمهدي أمير المؤمنين في جميع البلاد، فما كان بعد صلاة الجمعة جلس رجل يعرف بالشريف ومعه الدعاة، وأحضروا الناس، ودعوهم إلى مذهبهم، وقتل من لم يوافق"[5].

وعليه؛ فقد بدأ عهد جديد، وقامت الدولة العبيدية في إفريقية سنة 297هـ بقيادة عبيد الله المهدي، وبدأ ذكر اسمه في خطبة الجمعة، ودوّن الدواوين، وجبا الأموال، واستقرت قدمه، ودانت له أهل البلاد، واستعمل العمال عليها[6].

1- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1، ص: 65.

2- القاضي النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، ص: 280.

3- فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص: 179.

4- القاضي النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، ص: 281.

5- المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1، ص: 66.

6- الخربوطلي، أبو عبد الله الشيعي، ص: 57.